الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

قسم: اللغة والأدب العربي

تخصص: دراسات لغوية

قواعد التخاطب بين الخطبة الجاهلية والخطبة الإسلامية

– مقاربة تداولية –

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

من إعداد الطالبتين:
* **بلعيش سهام**
* **زنايد فاطمة الزهرة**

إشراف الأستاذة:
فريدة موساوي

اللجنة المناقشة:

– أ.عبد الرحمان عيساوي	جامعة البويرة	رئيسا
– أ. فريدة موساوي	جامعة البويرة	مشرفا ومقررا
–أ. أمينة لعموري	جامعة البويرة	مناقشا

السنة الجامعية: 2015–2016

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل رب زدني علما

كلمة شكر

نحمد الله عزّ وجلّ أن أعاننا على إتمام هذا البحث؛ كما نتقدّم بالشكر الجزيل لجميع من ساعدنا على إنجازه سواء بإرشاد أو تشجيع أو كلمة طيّبة فجزاهم الله عنّا كلّ خير.

ونخصّ بالذّكر كلّ أساتذتنا في جميع الأطوار، خاصّة الأستاذة المشرفة:

موساوي فريدة.

التي تابعت باهتمام انجاز هذا البحث ولم تبخل علينا من وقتها ونشكرها على توجيهاتها القيّمة.

كما نشكر جميع من اطّلع على هذا البحث؛ فمن وجد فيه خللا أو عيبا فأرشدنا إليه فسنكون له من الشاكرين.

إهـــــداء

إلى حبيبتي الغالية أمّي حفظها الله وأطال في عمرها

إلى معلّمي الأوّل أبي العزيز حفظه الله وأطال في عمره

إلى أختي الغالية جميلة رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه

إلى أختي آمال أسأل الله أن يحفظها لأولادها

إلى سندي في الحياة إخوتي الأعزاء

إلى لامية ونعيمة أمّهات فرحة البيت

إلى

رفيقتي في هذا العمل أختي سهام

إلى كلّ من يعرفني

فاطمة الزهرة

إهـــــداء

إلى أعزّ إنسانة على قلبي أمي الحبيبة والغالية حفظها الله

إلى أعظم أب في الدنيا أبي الحبيب الغالي حفظه الله

إلى كلّ عائلتي خاصّة أخويّ العزيزين وأختي الحبيبة لمياء

إلى أختي وزميلتي في هذا العمل: فاطمة الزهراء

إلى كلّ الأعزّاء على قلبي

سهام

مقدمة

يعتبر التخاطب طبيعة بشرية لا يمكن العيش بدونها ولو بالرّموز والإشارات، فالتخاطب بين المتكلمين والسامعين من أكثر الآليات التواصلية تأثيرا، لاسيما إذا استطاع المتكلّم (المخاطِب) توظيف ألفاظ وعبارات تمكّن المستمع (المخاطَب) من فهمه وكذا التفاعل معه. وقد أولت المناهج الحديثة وبوجه خاص التداولية، أهمية بالغة للعملية الإبلاغية، وذلك أنها جعلت الخطاب العادي (Body language) أهم خاصية لها في التحليل بعد التركيز على أهمية السّياق في تحليل الخطابات، وبهذا اتّسعت مدوّنة التحليل وخرجت من الخطاب المكتوب إلى الخطاب المنطوق.

تعد الخطابة فنّا من فنون التخاطب، وهي جزء لا يتجزّأ من كيان أيّة أمّة فهي لسانها الناطق، ولا شك أنّ الخطب التي وصلت إلينا من الجاهلية تبدو قليلة جدًّا ونادرة بالنسبة إلى الخطباء الذين تتردّد أسماؤهم في كتب الأدب لذلك وقع اختيارنا على خطبة قس بن ساعدة الإيّادي. وفي المقابل تعدّ الخطبة الإسلامية قمّة في البلاغة والبيان لأنّ الخطباء حاولوا النسج على منوال القرآن الكريم، فاخترنا خطبة (حجّة الوداع) للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار هذا الموضوع هي:

أولا: معرفة مدى تجسّد قواعد التخاطب في الخطبتين، فخطبة قس بن ساعدة تعدّ أقرب النماذج إلى واقع الخطابة، وقد سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم، حين ألقاها قس بن ساعدة في سوق عكاظ. أما بالنسبة لخطبة (حجة الوداع) فهي تتجلى في إعطاء أنموذجا تخاطبيا إسلاميا، يجمل فيها الرّسول صلى عليه وسلّم تعاليم الشريعة الإسلامية ومقاصد ديننا الحنيف.

ثانيا: قلّة الدراسات الأكاديمية في هذا الموضوع الذي اخترناه،والذي من خلاله حاولنا الإجابة عن الأسئلة التالية : ما مفهوم التخاطب؟ وما هي قواعده، وكيف تجسّدت في الخطبتين من هذا المنطلق قسمنا بحثنا الموسوم بـ :

«قواعد التخاطب بين الخطبة الجاهلية والخطبة الإسلامية مقاربة تداولية».

وفقا لخطة تقوم على فصلين أحدهما نظري والآخر تطبيقي، فالنظري اشتمل على مبحثين الأول بعنوان: مفهوم التخاطب ، والمبحث الثاني بعنوان: قواعد التخاطب.

و اشتمل الفصل التطبيقي على ثلاث مباحث، الأول بعنوان: الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي، والمبحث الثاني بعنوان: دراسة لخطبة قس بن ساعدة، والمبحث الثالث بعنوان: دراسة لخطبة حَجَّة الوداع.

وقد طبقنا في دراستنا هذه المنهج التداولي، وأخضعنا الخطبتين لآلياته ومعرفة مدى التزام المتكلم بقواعد التخاطب في العملية التخاطبية.

وفي الأخير خاتمة تطرقنا فيها إلى بعض الاستنتاجات التي توصلنا إليها مع ذكر أهمية التخاطب وقواعده.

كما اعتمدنا في بحثنا هذا على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها: استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية لعبد الهادي بن ظافر الشهري، اللسان أوالميزان والتكوثر العقلي لطه عبد الرحمان، القاموس الموسوعي للتداولية جاك موشلر، البيان والتبيين للجاحظ...إلخ.

ونأمل أن يكون هذا البحث مفيدا يجد فيه القارئ الحاجة التي يصبو إليها.

الفصل الأول: الدراسة النظرية

المبحث الأول: مفهوم التخاطب

أ ـ لغة

ب ـ اصطلاحا

المبحث الثاني: قواعد التخاطب

أ ـ مبدأ التعاون

ب ـ مبدأ التأدب

ج ـ مبدأ التواجه

د ـ مبدأ التأدب الأقصى

هـ ـ مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص

المبحث الأول: مفهوم التخاطب

أ- **لغة:** كلمة تخاطب مأخوذة من مادة (خطب) ومنه«الخَطْبُ: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال، والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان، والخطبة: عند العرب الكلام المنثور المسجّع ونحوه التهذيب، والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر.»[1]

يدل هذا على أن أصل كلمة تخاطب أو خطبة يرجع إلى الشأن أو الأمر، كما ترتبط بمقام يبرّرها سواء عظم أو قلّ.

و«خطب: خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام وخطب الخطيب خطبة حسنة.»[2]

وهنا يحدّد الزّمخشري مادة (خطب) بأنها تبادل الكلام بين المتكلم والمخاطب، ومدى جودة موضوع الخطيب وأهميته.

ب-اصطلاحا: أما اصطلاحا فيعرّف التخاطب على أنه:

«بنية تفاعلية تقوم على ضربين من المبادئ، مبادئ تواصلية وأخرى تعاملية.»[3]

أي أن التخاطب يقوم على مبادئ تواصلية ترتبط بالجانب التبليغي، ومبادئ تعاملية ترتقي بالجانب التّهذيبي.

---

[1] – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مج5، ط4 (دار صادر، بيروت) 2005 ص94.

[2] – محمود بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، ط1 (المكتبة العصرية، صيدا، بيروت) 2003 ص228.

[3] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1 (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب) 1998، ص253

كما أنه «كل عملية اتصال تتم بين متكلم ومخاطب في مقام معين عبر قناة معينة قد تكون لغة (ملفوظة/ مكتوبة) أو إشارة أو صورة أو غير ذلك.»[1]

فالتّخاطب لا يحدث إلا بين طرفين، وهو عملية تتمّ على عدّة مستويات لغوية سواء ملفوظة أو مكتوبة، أو بإشارة أو صورة، ومنه يتّجه المتخاطبان نحو تحقيق الهدف المرجو.

[1] – منصف دقاشي، علم التخاطب في مناظرات ابن تيمية، مذكرة ماجستير، (جامعة مولود معمري، تيزي وزو) 2014، ص 23.

المبحث الثاني: قواعد التخاطب

إن المتخاطبين لا يدخلون عالم التخاطب إلا وهم محاطون بمجموعة مبادئ تضبط سلوكهم التخاطبي، وتعرف بمبادئ التخاطب التي يجب علينا مراعاتها إذا أردنا الدخول في إطار التبادل الكلامي.

إنّ مجموع هذه المبادئ ذات الطبيعة البلاغية التخاطبية هي ما يشكل القدرة التداولية لدى المخاطبين، ومن ثمّ يجب عليهم باعتبارهم أطراف الخطاب مراعاة هذه المبادئ، والتي تتمثل فيما يلي:

أ- مبدأ التعاون:

يعتبر مبدأ التعاون من أهمّ مبادئ التخاطب وهو المبدأ الأوّل والأساسي حيث يقول صلاح الدين صالح حسين:« يبدو أن المبدأ الأساسي في معظم تبادل الحديث يكمن في تعاون المشاركين في الحديث فيما بينهم، وهذا المبدأ عرضه (غرايس) عام 1975.»[1]

صاحب هذا المبدأ هو (غرايس) فقد جعله أساسا يعتمد عليه في تبادل الحديث، بحيث جعل للمشاركين دورا في تحقيق هذا التّعاون. وذلك في « بحثه الموسوم (المنطق والحوار) ويقصد به ذلك المبدأ الذي يرتكز عليه المرسل إليه على تأويله وفهمه، وقد صاغه على النحو التالي:

– ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلّبه سياق الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أوالاتّجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار.»[2] ، أي أنه ينبغي على كل طرف من أطراف الخطاب

[1] – صلاح الدين صالح حسين، في لسانيات العربية، دط (دار الفكر العربي، القاهرة، مصر) 2015، ص 275.

[2] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1 (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان) 2004، ص96.

أن يكون مدركا للموضوع، وتكون مساهمته أو تدخّله في سياق الموضوع وليس خارجا عنه، كما أن طرفي الخطاب لا بد أن يسيرا على وتيرة واحدة في الحوار، أي بما يتوافق معه.

وقد فرّع (غرايس) على مبدئه في التعاون قواعد تخاطبية مختلفة قسّمها إلى أربعة أقسام وهي:

1-قاعدة الكم: «نقول ما هو ضروري بالضبط ولا نريد أكثر من الضروري.»[1]

بمعنى أنه لا داعي لقول ما لا يهم و توخّي الدّقة، فالمراد هو الضّروري وما لا يعتبر حشوا.

أما (طه عبد الرحمان) فقد وضع للكم قاعدتان، وهما:

«أ- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته.

ب- لا تجعل إفادتك تتعدّى القدر المطلوب.»[2]

أي على المخاطب أن يقول ما هو مفيد وبإيجاز سيتوفي حاجة المخاطب ولا داعي للكلام الفارغ.

أما القسم الثاني هو:

2-قاعدة الكيف: « تقول ما ينبغي على أحسن وجه أي أن تتوخى أساسا، النزاهة وعلى أساس المعلومات الكافية.»[3]

يجب أن نعتمد الصدق في القول، ولا بد أن تكون المعلومات مفيدة وكافية.

---

[1] – فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تعريب: صابر الحباشة، ط1 (عالم الكتب الحديث إربد، الأردن) 2012، ص 64.

[2] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص238.

[3] – فليب بلانشيه، المرجع السابق، ص64.

أما صلاح الدين صالح حسين فيسمى (الكمّ) بـ:

« (الهيئة): كن واضحا أي تجنب الغموض، وكن موجزا، أي تجنب الإطناب غير الضروري وكن منظما. ويسمّي (الكيف) بـ:

(النوعية): لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح أو أنه يحتاج إلى دليل.»[1]

يذهب صلاح الدين صالح إلى نفس ما جاء به غرايس وطه عبد الرحمان، بحيث يجعل الأساس في التخاطب هو الإيجاز والصدق في المعلومات.

فطه عبد الرحمان جعل للكيف قاعدتان هما:

«أ- لا تقل ما تعلم كذبه.

ب- لا تقل ما ليست لك عليه بيّنة.»[2]

هنا يشير طه عبد الرحمان أيضا إلى توخي الصدق فلا ينبغي أن نقول ما لا نعلم صدقه، وما ليس لنا عليه يقين.

والقسم الثالث هو:

3 ـ قاعدة العلاقة أو الإفادة: « تقول أشياء مفيدة، أشياء لها علاقة بالمحادثة.»[3]

أي يجب أن نقول ما هو مفيد وما يصب في لبّ الموضوع، واجتناب السفسطة والكلام الفارغ الذي لا يمتّ للموضوع بأيّ صلة.

---

[1] – صلاح الدين صالح حسين، في لسانيات العربية، ص276.

[2] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 238.

[3] – فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 64.

بمعنى: « كن مناسبا أي كن وثيق الصلة بالموضوع.»[1]

ويقول (طه عبد الرحمان): « (ليناسب مقالك مقامك)، ويسميه قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال.»[2] بمعنى أنه لا بد أن تكون علاقة ظاهرة بين القول ومناسبته فلكلّ مقام مقال.

أما القسم الرابع هو:

4- قاعدة الجهة: يجسّدها (طه عبد الرحمان) في قواعد هي:

«أ- لتحترز من الالتباس.

ب- لتحترز من الإجمال.

ج- لتتكلم بإيجاز.

د- لترتب كلامك.»[3]

هذا القسم قد يجمع بين كل الأقسام السابقة فهو يدعو إلى الوضوح والإيجاز والترتيب في الكلام. وهذا ما أشار إليه أيضا (فليب بلانشيه) بقوله: « تتكلم بوضوح بالنبرة الملائمة.»[4]

أي الدعوة إلى الكلام بوضوح وبطريقة تجعله مفهوما أكثر.

[1] – صلاح الدين صالح حسين، في لسانيات العربية، ص276.

[2] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 238.

[3] – المرجع نفسه، ص 238–239.

[4] – فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 64.

ب- مبدأ التأدب:

يعتبر هذا المبدأ من المبادئ التي تضبط التخاطب بين المرسل والمرسل إليه بحيث « يراعي المرسل نوع العلاقة بينه وبين المرسل إليه في خطابه، ودورها في إختيار إستراتيجية دون إستراتيجية أخرى، ومن الظواهر التي تجسد تلك العلاقة ما يسمى بظاهرة التأدب في الخطاب، إذ يتلفظ بخطابه وفقا لما تقتضيه.»[1]

وبهذا تتفاضل الخطابات وتختلف فيما بينها من حيث حضور التأدب مع المرسل إليه، وإفصاح المرسل عما يقصده له.

« يقتضي هذا المبدأ بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهم لتحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام بضوابط التهذيب بقدر لا يقل عما يلتزمان به من ضوابط التبليغ.»[2]

بمعنى أن المتكلم والمخاطب في هذا المبدأ يجب أن يلتزما في الكلام بقواعد التهذيب مثلما يلتزمان بقواعد التبليغ للوصول إلى الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام.

وتتفرع عن هذا المبدأ قواعد ثلاثة هي:

1- قاعدة التعفف: وصيغتها: «لا تفرض نفسك على المخاطب.»[3] ومقتضاها: أنه يجب استعمال العبارات في تحفظ وفي عدم إكراه للمرسل إليه، مثل أن يقول المرسل:

- بإمكانك أن ... (بدلا من) – يجب عليك أن ...

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص91.

[2] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص240.

[3] – المرجع نفسه، ص240.

- من الأحسن ألاّ تفعل ... – (بدلا من) ... لا تفعل ...

2- قاعدة التخيير أو التشكّك: «(لتجعل المخاطب يتّخذ قراراته بنفسه، ودع خياراته مفتوحة)، وهي تعمل أحيانا باتّساق مع قاعدة التعفّف، وقد تحلّ محلّها أحيانا عندما لا تناسب السّياق، وتقترح قاعدة التخيير التلفّظ بأساليب دالّة على تخيير المرسل إليه في اتّخاذ ردّة الفعل المناسبة أو التّلفظ بأساليب الشّك عند المرسل، بدلا من استعمال أساليب الجزم والإلحاح، بحيث يدع للمرسل إليه حرية اتّخاذ القرار.»[1]هذه القاعدة لا تلزم على المخاطب فعل شيء ما، وإنما تفتح له مجال الاختيار، باقتراح أساليب الشّك عند المرسل بدلا من استعمال أساليب الجزم، وبهذا لا يفرض المرسل نفسه على المخاطب، ويدع له حريّة اتخاذ قراراته بنفسه، مثل أن نقول لشخص:

- ما رأيك في تناول كوب من الحليب، (بدلا من) ـ تناول كوبا من الحليب.

3- **قاعدة التودّد:** صيغتها: «(لتظهر الودّ للمرسل إليه أي كن صديقا)، ومقتضاها: أن يتودّد المرسل إلى المرسل إليه بخطابه، علامة عن تأدّبه معه، إذ يقود ذلك إلى صداقة حميمة بين طرفي الخطاب، فيعوّض بذلك ما يخلّفه غياب الصداقة الحقيقية، كما يشعر المرسل إليه بالانتعاش، لإحساسه بالتّساوي مع المرسل، وذلك بشرط تكافؤ مرتبة طرفي الخطاب، حقيقة أو بأن يكون المرسل أعلى مرتبة من المرسل إليه، فإن توسّله بقاعدة التودّد في خطابه، ينبّئ عن طلبه للحريّة مما يورّث نتائج وخيمة على سير المحادثة. ويغدو إشعار المرسل إليه بالرضا هو غاية المرسل باستعمال قواعد التأدب، إلا أن كلاّ منها يؤدي إلى ذلك بطريقة مغايرة، في حين تؤدي قاعدة التودّد إليها بمعاملته بوصفه صديقا مرغوبا فيه.»[2]، تدعو هذه القاعدة إلى إنشاء

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص101.

[2] – المرجع نفسه، ص101.

صداقة بين المرسل والمخاطب، وإظهار الودّ لهذا الأخير من خلال خطاب المرسل الذي يدلّ على تأدّبه معه بحيث يرتاح المخاطب سواء تساوى معه في المرتبة أم كان المرسل أعلى مرتبة منه، أمّا إذا كان المرسل أدنى مرتبة من المخاطب فهذا يخلّف نتائج وخيمة في سير المحادثة لأن خطابه ينبّئ عن طلبه للحرية، باستعمال أساليب لغوية مثل: نداء الصّديق بلقبه أو باسمه الأول، مثل:

- محمد، عتبت عليك كثيرا.
- يا أحمد، لك العتبى حتى ترضى، ماذا تريد بعد؟!

ج- مبدأ التواجه: من المبادئ التي وضعت ليضبط بها التخاطب أيضا، « ما نجده عند (براون) و (ليفنسن) وتنخرط تحت ما أسميناه بمبدأ التواجه وصيغته هي: لتصن وجه غيرك.»[1]

وينبني هذا المبدأ على مفهومين أساسين أحدهما مفهوم (الوجه)، والثاني مفهوم (التهديد).

« أما (الوجه) فهو عبارة عن الذات التي يدّعيها المرء لنفسه، والتي يريد أن تتحدّد بها قيمته الاجتماعية، وهو على ضربين (وجه دافع) أو قل (سلبي)، و (وجه جالب) أو قل (إيجابي). أمّا (الوجه الدافع) فهو أن يريد المرء ألاّ يعترض الغير سبيل أفعاله، أو قل هو (إرادة دفع الاعتراض) أما الوجه الجالب، فهو أن يريد المرء أن يعترف الغير بأفعاله أوقل هو (إرادة جلب الاعتراف) فتكون المخاطبة هي المجال الكلامي الذي يسعى فيه كل من المتكلم والمخاطب إلى حفظ (ماء) وجهه بحفظ (ماء) وجه مخاطبه.»[2]

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص243.

[2] – المرجع نفسه، ص243.

إن الوجه هو ذات يتّخذها المرء لنفسه و بها يحدّد قيمته في المجتمع، وهو نوعين وجه دافع هو أن يريد المرء ألّا يعترض أحد سبيل أفعاله، ووجه جالب هو أن يريد المرء أن يعترف الغير بأفعاله.

وأمّا « (التهديد) فيرى (براون) و(ليفنسن) أن من الأقوال التي تنزل في التداوليات منزلة (أعمال) ما يهدد الوجه تهديدا ذاتيا، وهي الأقوال التي تعوق بطبيعتها إرادات المستمع أو المتكلم في دفع الاعتراض أو (الوجه الدافع) وجلب الاعتراف (أو الوجه الجالب).

أما عن المستمع فإن الأقوال التي تهدد وجه الدافع قد تكون أقوالا تحمله على أداء شيء نحو (الأمر)، (الطلب)، (النصح)، (التذكير)، (الإنذار)، (التحذير)، (الوعيد)، وقد تكون أقوالا تحمل المتكلم على القيام بشيء يلزم المستمع قبوله أو ردّه مثل: (العرض) و (الوعد)، وقد تكون أقوالا تعبر عن رغبة للمتكلم تدعو المستمع إلى حفظها (كالتهنئة) و(الإعجاب).

أما الأقوال التي تهدد الوجه الجالب للمستمع، فقد تكون أقوالا تعبر عن التقويم السلبي مثل (الذم) و (السخرية)، أو تكون أقولا تعبر عن عدم الإكتراث مثل: (التعرض) لكلام المخاطب قبل أن يفهم مراده أو (قطع) كلامه قبل أن يتمه وأما المتكلم فنذكر من الأقوال التي تهدد وجهه الدافع (الشكر) و (قبول الشكر) ونذكر من الأقوال التي تهدد وجهه الجالب (الاعتذار) و (الإقرار) و(الندم).»[1] هذا المفهوم يقابل في التداوليات مفهوم (أعمال) وهو ما يهدد تلك الذات التي يدعيها المرء لنفسه، وهذه الأعمال هي أقوال تعوق إرادات المستمع والمتكلم في دفع الاعتراض أو جلب الاعتراف.

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص243.

ويمكننا تصنيف الأفعال التي تهدد الوجه السلبي وأيضا الأفعال التي تهدد الوجه الإيجابي وفقا لعلاقاتها بطرفي الخطاب:

1-**المرسل إليه:** هنا يشير طه عبد الرحمان إلى أن « يهدد وجهه الدافع كل تلك الأفعال التي لا يحترم المرسل فيها حرية المرسل إليه ويحاول أن يعترضها ومنها:

أ- الأفعال التي تتطلب من المرسل إليه إنجاز بعض الأفعال في المستقبل مثل:

الأوامر، النصائح، الاقتراحات، التذكير، التهديد، التحذير.

ب- الأفعال التي تتطلب منه ردّة فعل إيجابية في المستقبل باعتبارها دينا عليه أن يفي به لاحقا مثل: العرض، الوعد.

ج- الأفعال التي تعبّر عن أطماع المرسل فيه، أو في بعض ممتلكاته، ممّا يدعوه إلى الإعتقاد إمّا بوجوب حمايتها، أو منحها إيّاه، مثل: المدح، تعبيرات الحسد والإعجاب، تعبيرات العواطف السالبة.»[1]

بمعنى أن كل هذه الأفعال هي أفعال تهدد الوجه الدافع للمرسل إليه فالمرسل في إطار هذه الأفعال لا يحترم حرية المرسل إليه.

أما الأفعال التي تهدد وجهه الجالب فهي: « تلك الأفعال التي تدل على عدم إكتراث المرسل بمشاعره أو رغباته ومنها:

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص243.

أ–التقييمات السلبية لبعض أفعاله، مثل تعبيرات الاستهجان، النقد، المعارضة، السخرية، إذ يعبّر المرسل بهذا عن عدم حبّه، أو عن عدم إحترامه لبعض رغبات المرسل إليه، أو أفعاله، أو خصاله الشخصيّة، أو قيمه، ومنها أيضا تعبيرات الإعتراض أو عدم الموافقة أو التحدّي.

ب–الأفعال التي تعبّر عن عدم اكتراث المرسل بوجه المرسل إليه الجالب مثل: إخافته أو عدم توقيره، أو التلفّظ ببعض الموضوعات المستهجنة أمامه، أو إعلامه أخبار غير سارّة، أو تباهي المرسل بما يسرّه هو أمام المرسل إليه.»[1]

هذه الأفعال تهدّد الوجه الجالب للمرسل إليه فهي تعبّر عن التقويم السلبي وتدل على عدم اكتراث المرسل بمشاعر المرسل إليه.

2–المرسل: يرى عبد الهادي أنه « اختصّ التصنيف الآخر بالأفعال التي تهدّد وجه المرسل بشقّيه، فمن الأفعال التي تهدّد وجهه الدافع: التعبير عن الشكر، قبول شكر المرسل إليه أو اعتذاراته، قبول عرض المرسل إليه عدم الرغبة بقطع الوعد التقدم بعرض. أمّا الأفعال التي تهدّد وجه المرسل الجالب مباشرة، فهي الأفعال التالية: الاعتذارات، قبول المدح، الندم، الإقرار بالذنب.»[2] فالمرسل مثل المرسل إليه هناك أفعال تهدّد وجهه الدافع، وأفعال أخرى تهدّد وجهه الجالب.

الخطط التخاطبية المتفرّعة على مبدأ التواجه:

يذكر لنا اللسانيان (بروان) و (ليفنسن) خمس خطط يختار منها المتكلم ما يراه مناسبا لقوله ذي الصيغة التهديدية، وهذه الخطط هي:

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 104 ـ 105 .

[2] – المرجع نفسه، ص 104 ـ 105 .

« أ- أن يمتنع المتكلم عن إيراد القول المهدّد، كأن يمتنع عن أن يطلب إغلاق النافذة لأن في ذلك مخاطرة بالوجه تضرّ به، أو تضر بالمستمع.

ب- أن يصرّح بالقول المهدّد من غير تعديل يخفّف من جانبه التهديدي كقول: أطلب منك أن تغلق النافذة.»[1]

نلاحظ في هاتين النقطتين أن المتكلم إذا وجّه قوله بصفة تهديدية بحتة فإنّه قد يضر بالمستمع. ولكن في النقطة الثانية خفّف من قوله المهدّد. وهذا لا يضر بالمستمع بالدرجة التي يضرّه بها في الأولى.

«ج- أن يصرح بالقول المهدّد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الدافع كقول: هل لك أن تغلق النافذة ؟

د- أن يصرّح بالقول المهدّد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الجالب كقول: ألست تبادر إلى إغلاق الباب كلّما تعرضنا لمجرى الهواء ؟

هـ- أن يؤدي القول بطريق التعويض، تاركا للمستمع أن يتخير أحد معانيه المحتملة، تقول: إن الجلوس في مجرى الهواء مؤذ إيذاءً.»[2]

بمعنى أن المتكلم أثناء توجهه بالحديث ذي الصيغة التهديدية يختار من هذه الخطط ما يراه مناسبا لقوله، تاركا لمخاطبه استنباط المعنى المقصود بنفسه.

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، ص 105.

[2] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص244.

د- مبدأ التأدب الأقصى: من المبادئ التي تضبط بها العملية التخاطبية أيضا هذا المبدأ الذي « يورده (ليتش) في كتابه (مبادئ التداوليات) والذي يعدّه مكمّلا لمبدأ التعاون.»[1] كما أنه يقرّ بأهميته بوصف التعاون هو « الأساس المفترض لتوجيه طرفي الخطاب (...) أما قصوره فيكمن في انحسار دوره على تنظيم التواصل.»[2]

ذلك لأنه الرابط بين قصد المرسل في خطابه ومعنى الملفوظ الدلالي وفي الوقت ذاته يقف عند المستوى التبليغي مغفلا مبادئ التداول الاجتماعية.

و«لذلك اقترح (ليتش) صياغة مبدأ التأدب لإقالة عثرة مبدأ التعاون، لأن دور التأدب لا يقف عند تنظيم العلاقات فحسب، بل يتجاوز إلى تأسيس الصداقات، مما يجعله هو أساس التعاون.»[3]

يعدّ التأدب عند (ليتش) مكمّلا لمبدأ التعاون لأن التأدب يتجاوز التعاون إلى تأسيس الصداقات بدلا من تنظيم علاقات فقط. و «قد صاغ مبدأه في صورتين اثنتين، إحداهما سلبية هي: (قلّل من الكلام غير المؤدّب)، والثانية إيجابية: هي (أكثر من الكلام المؤدّب).»[4] هاتين الصورتين هما الأساس الذي صاغ عليه ليتش مبدأ التأدب (أكثر/ قلّل).

وقواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التأدب الأقصى هي:

1- قاعدة اللباقة: « وصورتاها هما:

أ- قلّل من خسارة الغير

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص246.

[2] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ص 109 ـ 110.

[3] – المرجع نفسه، ص 109 ـ 110.

[4] – طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص246.

ب- أكثر من ربح الغير.»[1]

ترمي قاعدة اللباقة إلى رفع كل ما من شأنه أن يوقع في النزاع أو يمنع التعاون، ويتم ترجيح مبدأ التأدب الأقصى على مبدأ التعاون إذا وقع بينهما تعارضا لأنه الأكثر حفاظا على الصلة الاجتماعية. ويذكر بهاء الدين محمد مزيد، هذه القاعدة بقوله: «لا تكلّف غيرك أكثر مما تكلّف نفسك، ولا تمنح غيرك أقل مما تمنح نفسك.»[2] يشير بهاء الدين إلى ضرورة التساوي بين الذات والغير، ومنه تتوطد العلاقة بينهما وتدوم.

2 ـ قاعدة السخاء: « وصورتاها هما:

أ- قلّل من ربح الذات.

ب- أكثر من خسارة الذات.»[3]

تشير هذه القاعدة للدعوة إلى عدم الاهتمام الزائد بالذات من أجل تقوية الروابط الاجتماعية.

3- قاعدة الاستحسان: «وصورتاها هما:

أ- قلّل من ذم الغير.

ب- أكثر من مدح الغير.»[4]

هذه القاعدة ترمي إلى الرّفع من شأن الغير للحفاظ على علاقته مع الذات.

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص246.

[2] – بهاء الدين محمد مزيد، تبسيط التداولية، ط1 (شمس للنشر والتوزيع، المقطم، القاهرة) 2010، ص92.

[3] – طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص246.

[4] – المرجع نفسه، ص246.

4- قاعدة التواضع: « وصورتاها هما:

أ- قلّل من مدح الذات

ب- أكثر من ذم الذات.»[1]

هذه القاعدة تشبه قاعدة السخاء فكلتاهما تشيران إلى الحطّ من الذات وعدم التباهي بها للحفاظ على الصلة الاجتماعية.

5- قاعدة الموافقة: « وصورتاها هما:

أ- قلّل الاختلاف بين الذات وبين الغير.

ب- أكثر من موافقة الذات مع الغير.

6- قاعدة التجانس: وصورتاها هما:

أ- قلّل كراهية الذات للغير.

ب- أكثر انسجام الذات مع الغير.»[2]

هاتان القاعدتان توطّدان العلاقة بين الذات والغير بحيث ترميان إلى ضرورة تقبّل الذات للغير والانسجام معه.

وهذه القاعدة الأخيرة سماها (طه عبد الرحمان) بـ [قاعدة التعاطف] وصورتاها هما:

«أ- قلّل من تنافر الذات والغير.

[1] -عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 112.

[2] - المرجع نفسه، ص 112.

ب- أكثر من تعاطف الذات والغير.»[1]

والملاحظ أن (ليتش) صاغ هذه القواعد وفق قانون الربح والخسارة، وانطلاقا من ربح الغير مقابل خسارة الذات، وأن قاعدة اللباقة هي القاعدة الأساسية أما القواعد الأخرى فهي قواعد متفرّعة عنها.

و« بما أن التأدب معيار مشترك بين طرفي الخطاب في لحظة التلفظ، فإنه ذو وجهين متباينين، فالتأدب مع المرسل إليه، يفضي إلى عدم التأدّب مع الذات، والعكس أيضا، لذا يغدو المبرّر لصياغة قواعد التأدّب الفرعية، هو تفسير هذه التباينات وآثارها المنعكسة في استعمال المرسل للتعبيرات غير المباشرة.»[2]

بمعنى أن التأدب هو مبدأ مشترك بين المرسل والمرسل إليه لذلك هو ذو وجهين مختلفين فالتأدب مع الذات يفضي إلى عدم التأدب مع الغير، والعكس أيضا، وقواعد التأدب تفسّر هذا الاختلاف وما يخلّفه في استعمال المرسل للتعبيرات غير الصريحة. «ويظهر ذلك في مثال (الأوامر) غير المصرّح بها التي كثيرا ما تأتي في تعابير مطولة ومستغلقة تخلّ بقواعد التعاون التي تقضي بالإيجاز والوضوح، فكأن التعبير الطويل والمستغلق الذي تقضي به قاعدة اللباقة أوفى بغرض المتكلم في نهوض المخاطب إلى إنجاز الأمر.»[3]

وهذا ما يدفع بالمرسل إلى التلفظ بما تستوجه قاعدة اللباقة، باستعمال التعابير غير المباشرة وفي هذا يعطي عبد الهادي بن ظافر الشهري، المثال الآتي:

---

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص247.

[2] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 112.

[3] – طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 247.

«1- أعرني سيارتك.

2-أريد أن تعيرني سيارتك.

3-هل يمكن أن تعيرني سيارتك؟

4-لعلك تعيرني سيارتك.»[1]

الموضوع المشترك بين هذه الجمل هو: استعارة سيارة في المستقبل، لكن تم التعبير عن هذا بصيغ متعددة، فالجملة الأولى تدل على المعنى المباشر فهي للدلالة على أمر صريح، فكانت أقلّ لباقة، في حين كانت الجملة الثانية خبرية تفسح المجال للمخاطب للإختيار في إنجاز ما طلب منه، وكانت بذلك أكثر لباقة من الجملة الأولى، أما الجملة الثالثة فهي استفهامية تترك للمخاطب حرية الاختيار في الإجابة، بالقبول أو الرفض، مما جعلها أكثر لباقة من الجملة الأولى والثانية، ثم تأتي الجملة الرابعة أكثر الجمل لباقة، لأنها لا تلزم المخاطب أو تكرهه على قبول ما لا يودّ قبوله، فالمتكلم يتمنى وقوع المطلوب من المخاطب ويخيّره في ذلك.

هـ- مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص:

« بالرغم من الجهود السابقة إلا أن كلاّ منها ينطوي على بعض مكامن القصور وآخرها مبدأ التأدب عند "ليتش"، الذي يولي عنايته بالمصلحة والخدمة مما دفع طه عبد الرحمان إلى صياغة مبدأ التصديق باستلهام من تراث الثقافة الإسلامية.»[2]

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 113.

[2] - المرجع نفسه، ص113.

يتبين لنا هنا أنه بعد مراجعة طه عبد الرحمان للمبادئ السابقة وكشفه عن بعض الثغرات التي تشكو منها، سعى إلى صياغة مبدأ يسد به بعض القصور الذي بدا واضحا على المبادئ السابقة، حيث لجأ إلى صياغة مبدأ التصديق الذي اتخذ صورا مختلفة في التراث منها: «(مطابقة القول للفعل) و(تصديق العمل للكلام) ونصوغ هذا المبدأ كما يلي: **لا تقل لغيرك قولا لا يصدّقه فعلك**، وينبني هذا المبدأ على عنصرين اثنين:

أحدهما: (نقل القول) الذي يتعلق بما أسميناه بالجانب التبليغي من المخاطبة والثاني: (تطبيق القول) الذي يتعلق بما أسميناه بالجانب التهذيبي.»[1]

هنا نستنتج أن هناك نوعين من القواعد هما:

قواعد التواصل التي تتعلق بالجانب التبليغي، وقواعد التعامل التي تتعلق بالجانب التهذيبي.

1- قواعد التواصل المتفرّعة على مبدأ التصديق:

تتفرع على مبدأ التصديق في جانبه التبليغي قواعد مضبوطة أخذها طه عبد الرحمان من كتاب أدب الدنيا والدين (للمارودي) هي:

«أ- ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في إجتلاب نفع أو دفع ضرر، وهذه القاعدة تقوم مقام مبدأ التعاون إذ أنها تشترط تحديد هدف معين للمخاطبة كما يشترطه هذا المبدأ، حتى إذا خلت المخاطبة من هذا الهدف المخصوص.

[1] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص249.

ب- ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته: تنزل هذه القاعدة منزلة قاعدة العلاقة إذ أنها تقضي بأن يكون لكل مقام قول يناسبه.»[1]

فالكلام يكون لسبب يدعو إليه إما في دفع ضرر أو جلب نفع، و لا بد أن يتم تحديد الهدف ومنه يجب أن يكون لكل مقام مقال.

«ج- ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته: وهذه القاعدة تقوم مقام قاعدة الكم إذ أنها توجب الإكتفاء بالضروري من الخبر كما توجبه تلك.

د- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم: تنزل هذه القاعدة منزلة قاعدة الجهة إذ أنها تشترط مراعاة صحة المعاني وفصاحة الألفاظ كما تشترط إتباع أساليب الوضوح.»[2] ما نستنتجه هنا أن هذه القواعد كلها تندرج ضمن ما يسمى بمبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عليه باستثناء قاعدة الكيف أو الصدق، وحسب رأي طه عبد الرحمان أنه بالإضافة إلى القواعد السابقة لمبدأ التصديق هناك قواعد أخرى تتفرع عنه تعرف بقواعد التعامل.

2- قواعد التعامل المتفرعة على مبدأ التصديق:

تتمثل هذه القواعد فيما يلي: « أ- **قاعدة القصد:** لتتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير إذ يترتب على هذه القاعدة أمران: أحدهما: أنها تصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي إذ يتعين في تبيين القصد نتيجتان هما: تحديد المسؤولية الأخلاقية، والأخرى إفادة المرسل إليه المعنى المقصود، والأمر الآخر: إمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول إذ يجوز أن يتفاوت مقصود

[1] - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص 249- 250.

[2] - المرجع نفسه، ص250.

القول عن مضمونه، مما يلزم عنه دخول المرسل إليه في ممارسة العمل لمعرفة قصد المرسل، فهو لا يتبادر إليه مباشرة.»[1]

هذه القاعدة ترمي إلى وجوب تفقد القول قبل إلقائه للغير حيث ينتج عن هذه القاعدة أمران منهما تتحدّد المسؤولية الأخلاقية وإفادة المرسل إليه المعنى الذي قصده المتكلم وبذلك يدخل المرسل إليه في ممارسة العمل لمعرفة قصد المتكلم.

«**ب–قاعدة الصدق:** لتكن صادقا فيما تنقله إلى غيرك.

قاعدة الصدق تقتضي بممارسته في مستويات ثلاثة: الصدق في الخبر والصدق في العمل ومطابقة القول للفعل.»[2]

«أما صدق الخبر فهو أن يحفظ المتكلم لسانه عن إخبار المخاطب بأشياء على خلاف ما هي عليه وأما الصدق في العمل، فهو أن يصون سلوكه عن إشعار المخاطب بأوصاف هي خلاف ما يتصف به، وأما مطابقة القول للعمل، فهو أن يحفظ لسانه وسلوكه عن إشعار المخاطب بوجود تفاوت بينهما.»[3].

نلاحظ أن هذه القاعدة تتم في ثلاثة مستويات الصدق في الخبر، والصدق في العمل ومطابقة القول للفعل.كل مستوى من هذه المستويات يفضي إلى ضرورة حماية المخاطب والصدق معه.

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 94 ـ 95.

[2] – المرجع نفسه، ص 94 ـ 95.

[3] – طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص251.

ج- قاعدة الإخلاص: «(لتكن في تودّدك للغير متجرّدا عن أغراضك).

تقتضي هذه القاعدة تقديم حقوق المرسل إليه على حقوق المرسل، ومرّد ذلك هو الإيثار على الذات والثقة بأن الحق ثابت، ولا تقوم على الانتزاع، وزيادة التأدب من جانب المرسل مدعاة إلى زيادته من جانب المرسل إليه.»[1]

نلاحظ أن هذه القاعدة تقتضي أن يؤثر المتكلم حقوق المخاطب على حقوقه وتقوم هذه الحقوق على التأدب المتبادل، بحيث كلما زاد أدب أحدهما دعا الآخر إلى الزيادة فيه فلا تنقصه زيادة أدبه شيئا وإنما ترفعه.

نستنتج مما سبق أن مبدأ التصديق التراثي يرتقي بالجانب التهذيبي من المخاطبة الذي ينبني على القصد والصدق والإخلاص، وينبغي ربط القول بالفعل والنظر بالعمل.

وفي الأخير نلاحظ أن هذه القواعد قريبة من قواعد مبدأ التأدب وقواعد التواجه مع محاولة طه عبد الرحمان في عدم الوقوع في المزالق التي وقعت فيها هذه المبادئ.

[1] - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص 94- 95.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية

المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي

أ ـ الخطابة في العصر الجاهلي

ب ـ الخطابة في صدر الإسلام

المبحث الثاني: دراسة لخطبة قس بن ساعدة الإيادي

أ ـ نموذج الخطبة

ب- خصائصها

ج ـ قواعد التخاطب المتجسدة فيها

المبحث الثالث: دراسة خطبة حجَّة الوداع

أ ـ نموذج الخطبة

ب- خصائصها

ج ـ قواعد التخاطب المتجسدة فيها

المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي

أ ــ الخطابة في العصر الجاهلي:

ازدهرت الخطابة في العصر الجاهلي أيّما ازدهار، وقد كان العرب في هذا العصر يتميّزون بالفصاحة والبيان، بالإضافة إلى بلاغتهم، كما تميّزوا بقدرتهم على الارتجال ومواجهة المواقف.

« كان العرب الجاهليون أصحاب خطب قويّة، اعتمدوا عليها في مواقفهم المهمّة واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم، وقد ذهب الكثير من هذه الخطب مع الزمن، شأن الشعر الذي قيل في الجاهلية، إذ لم يحفظ لنا التاريخ إلا قليلا جدا منها، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبق من خطبهم شيء، ذلك لتفشي الأمية، وقد أعاد الأدباء والمفكرين أسباب وجود الخطابة عند العرب في الجاهلية إلى التمتع بحرية القول التي قلما توفرت لغيرهم و إلى مقدرتهم القوية على الحديث والكلام ومعرفتهم اللغة العربية الأصيلة ذات النغم الذي يثير المتكلم والسامع ويبعث الخطيب الاستمرار في حديثه.»[1]

الملاحظ أن العرب كان لهم خطب كثيرة وقد تفنّنوا فيها نظرا لفصاحتهم وبلاغتهم فكانوا يتلفظون بعبارات بليغة ويأتون بحكم صائبة دون أن يعدّوا لها سابقا. وفي هذا الصدد يقول الجاحظ في البيان والتبيين « فما هو إلا أن يصرف العربي همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انتثالا.»[2] فهنا يبين الجاحظ أن العربي عندما يضبط المذهب والعمود فإن المعاني والألفاظ تأتيه فطرة نظرا لمدى قدرتهم على الارتجال.

[1] – عبد الله علي جابر المري، الخطابة عند الفاروق دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير مقدمة لكلية الآداب والعلوم في اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط 2011–2012، ص 18.

[2] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ط7(مطبعة المدني، القاهرة) 1998، ص28.

ومنه يتبيّن لنا مدى تأثر الناس في الجاهلية بفن الخطابة والخطباء ثم إنه قد بلغ الخطيب عندهم مرتبة تفوق مرتبة الشاعر.

ومن أقدم الخطباء المشهورين **كعب بن لؤي** الجدّ السابع لرسول "الله صلى الله عليه وسلم".

فقد كان يخطب العرب في الشؤون المختلفة وكان مهيبا مسموع الكلمة ويأتي بعد ذلك **تيس بن خارجة بن سنان** خطيب داحس والغبراء، و**قس بن ساعدة الإيادي** خطيب عكاظ و**الحارث بن عباد** و**قيس بن مسعود**.

ومما يؤكد على رقي الخطابة وازدهارها في العصر الجاهلي ما قاله الرسول "صلى الله عليه وسلم" عن قس بن ساعدة الأيادي:

« رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: (أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت، آت).»[1]

هذا دليل على مدى ازدهار الخطابة وشهرتها في العصر الجاهلي ومدى اهتمام الناس بهذا الفن.

« وللخطابة الجاهلية موافق ودوافع كثيرة، أهمّها ما ذكرنا من اجتماع القوم للتشاور في أمر من أمورهم كالقيام بحرب أو الإصلاح بين المتنازعين ويأتي ذلك في خطب و محاورات، يتبع ذلك الوصايا التي يقدّمها رئيس القوم أو حكيم لقومه أو لأولاده، ففي أسواقهم كانت تقوم المنافرات

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 308–309.

والمفاخرات ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر.»[1] فقد كانت تقال الخطب للإصلاح بين المتخاصمين وتقديم الوصايا.

« وأكثر ما نجده في هذه الخطب اتّسامها بقصر الجمل وسرد الحكم حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى وهي في جملتهم خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشؤون الناس وأحداث الحياة، ونادرا ما يجد القارئ لتلك الخطب معاني فلسفية عميقة، وإجمالا فإن، خطب الأعراب وأدعيتهم تعد من أبلغ وأجمل الخطب، أسلوبا ومعنى يستعين بها الخطيب الحديث، ويجد فيها مدادا واسعا بالرأي والفكر وبالتعبير والبلاغة.»[2]

كان للخطباء في العصر الجاهلي عادات وتقاليد استمرت حتى بعد ظهور الإسلام، وقد تميّز هؤلاء الخطباء بقدرتهم على مواجهة المواقف الصعبة وكذلك قوة البديهة العربية عندهم بالإضافة إلى قدرتهم على الإرتجال.

[1] – عبد الله علي جابر المري، الخطابة عند الفاروق دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، ص18.

[2] – المرجع نفسه، ص18.

ب ــ الخطابة في صدر الإسلام:

ازدهرت الخطابة في العصر الإسلامي، واتّخذت شكل الدفاع عن القيم الإسلامية بدلا من التركيز على الحكمة، ويعدّ القرآن الكريم المصدر الأول للخطابة الإسلامية ثم يليه الحديث النبوي الشريف.

«إن الإسلام نهضة عامة شاملة لم يعد لها من قبل في العالم مثيل وكانت الخطابة عماد هذه النهضة، وأداة فعّالة من أدواتها وكانت هذه النهضة دينية في روحها وأساسها، وليس الإسلام جمود فيقف عند المطالب الأخروية، بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لا بد من أن يتعرض لكل ما به من صلاح أمور البشرية في العقيدة والتشريع والمعاملات ولم يدع مجتمعنا إلا خص عليه وأقام من شأنه وطلب فيه من القول ما هو ضروري له، كخطبة الجمعة والعيدين وموقف عرفات وكذلك كان صاحب هذه الدعوة يمثّل الإمام الهادي المشرّع والحاكم العادل والزعيم السياسي.»[1] لقد تطوّرت الخطابة في العصر الإسلامي إلى حدّ كبير مقارنة بالحالة التي كانت عليها في العصر الجاهلي .

«وقد جاءت خطابة هذا العصر في هذه الميادين جميعا وإن كانت وجهتها الرئيسية وجهة دينية، وكان غرضها الأساسي إقامة عمود الدين، ورفع منار الإسلام فكانت هناك خطب دينية شملت العقائد والدعوة إلى الإسلام و التشريع بما فيه من تبيين الحدود وإقامة معالم الحلال والحرام و الوعظ والإرشاد، بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وحث على مكارم الأخلاق.»[2]

[1] – عبد العاطي محمد شلبي، الخطابة الإسلامية أصولها، تعريفها، عناصرها مع نماذج من خطب الرسول "صلى الله عليه وسلم"، دط (المكتب الجامعي الحديث، الآزاريطة، الإسكندرية) 2006، ص31.

[2] – المرجع نفسه، ص31.

فالخطابة في صدر الإسلام تطوّرت وازدهرت، بحيث شملت جميع الميادين بطابعها الديني، وهدفها الأسمى هو الحفاظ على أسس الدين الإسلامي والدعوة لاتباع قواعده.

الطابع العام للخطابة في صدر الإسلام:

لقد تميزت الخطابة في العصر الإسلامي بسمات جديدة تختلف عن العصر الجاهلي وتتمثل هذه السمات، فيما يلي:

«أ- ظهور الطابع الديني: من دعوة للإسلام ودفاع عنه وبيان للعقائد كوجود الله ووحدانيته وقدرته، وسنّ الشرائع والأحكام المفيدة للناس المنظّمة للحياة الشخصية وللمعاملات بين الناس.

ب-اختيار خطب ذات أهداف إنسانية عامة وغايات كريمة سامية من تحرير النفوس والعقول والأرواح من قيود الشرك والضلالة وإخراجها من ظلمات الوثنية والجاهلية.

ج- اتساع مجال الخطابة الاجتماعية فقد أخذت دائرتها تتسع وتتجه في نواحي الحياة العامة، وجهات مختلفة نافعة.

د- اتساع دائرة الخطابة والخروج بها من مجال التعبير عن الأغراض السامية والفكر الراقي في الكون وقيامه، والوجود ونظامه والمجتمع وعوامل بقائه وارتقائه وما ينبغي أن يقوم عليه من أسباب.»[1]

ومنه نستنتج أن الخطابة في العصر الإسلامي قد تطورت واختلفت، وذلك من حيث المضامين والأغراض، حيث تنوعت موضوعاتها وأفكارها وكذلك غاياتها.

[1] – عبد العاطي محمد شلبي، الخطابة الإسلامية أصولها، تعريفها، عناصرها، مع نماذج من خطب الرسول "صلى الله عليه وسلم"، ص 32.

المبحث الثاني: دراسة لخطبة قس بن ساعدة الإيادي:

أ ــ نموذج الخطبة:

وفيها يقول:«أيّها الناس اسمعوا واعوا واذكروا، من عاش مات ومن مات فات وكلّ ما هو آت، آتٍ، ليل داجٍ ونهار ساجٍ وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج، ألا إنّ أبلغ العضات السيّر في الفلوات والنّظر في محلّ الأموات، إنّ في السماء لخبرا وإنّ في الأرض لعبرا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أ رضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هنا فناموا، يامعشر إيّاد أين الآباء والأجداد؟ أين المريض والعوّاد؟ وأين الفراعنة الشّداد؟ أين من زخرف ونجّد؟ وبنى وشيّد، وغرّه المال و الولد أين من طغى وبغى؟ وجمع فأوعى وقال ربّكم الأعلى ثمّ أنشأ يقول:

في الذّاهبين الأوّلين من القرون لنا بصائر

لمّـا رأيت مواردًا للمـــوت ليس لها مصـــادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إليّ، ولا مـن الباقين غابـــر

أيقنت أنّي لا محالة حيث صـار القوم صائر.» [1]

[1]– أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، ط1 (مطبعة مصطفى الثاني الحلبي، مصر) 1923، ص65.

ب-خصائصها:

إن الخصائص الفنيّة للخطب الجاهلية تختلف من خطبة إلى أخرى وذلك من حيث المعاني والألفاظ والأساليب، ومن بين هذه الخطب خطبة "قس بن ساعدة" التي سبق لنا ذكرها فـ" قس" كان نبيها عاقلا في قومه كان إذا تكلّم أنصت له الجميع وإذا خطب أقنع الناس بكلامه وقد ألقى هذه الخطبة في سوق عكاظ، «متحدثا إلى النّاس داعيا إيّاهم إلى الاتّعاض والأخذ بالأسباب وسبل العقل والتأمّل متعرّضا لحقيقة الموت.»[1]

فقس بن ساعدة غايته نصح الناس وإرشادهم إلى التفكّر والتأمّل قبل الموت لأنها حقيقة لا مفرّ منها.

1ـ المعاني:

الملاحظ أن قس بن ساعدة لم يذهب مذهب الشعراء في وصف الوجود ومظاهره، فقد نظر في الوجود و تأمّل فيه وتفكّر ولم يجلبه لا لون ولا متعة بل إنه تجاوز كل هذا.

واعتمد على صيغة الأمر القائمة على المعنى المباشر "اسمعوا – انظروا ..."، كما غلبت صيغ الاستفهام في الخطبة كتعبير عن الحيرة التي صدرت عن الخطيب خلال نظره في أمر الوجود.

وجاءت الخطبة غير متماسكة الأجزاء وغير متسلسلة الأفكار، وهي كما يقول محمد أبو زهرة: «عبارة عن حكم متناثرة بل هي منثور غير منتظم.»[2]

[1]– ينظر: إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، دط (دار الثقافة – بيروت، لبنان) د ت، ص 55.
[2]– محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها، ط2 (دار الفكر، القاهرة، مصر) 1980، ص 237.

كما أنها خطبة اعتمد فيها الخطيب على مواجهة الحياة الزّائلة، وهي ترتبط بموضوع واحد بحيث: «اقتصر على قالب واحد في خطبته هو حقيقة الموت المحدّق بالإنسان بادئا بالدّعوة إلى التأمل والتساؤل منتهيا إلى الإيمان بيقين الزّوال.»[1]

فقد ألحّ قس بن ساعدة على الناس ودعاهم إلى الإيمان بيقين الموت.

2ـ الألفاظ:

أمّا الألفاظ فكانت صريحة مباشرة وأغلبها مجهورة، «فمخارج هذه الحروف المشكّلة للألفاظ أشدّ وقعا مما تقتضيه المعاني، إذ طغى عليها جرسها القوي.»[2]

كما نلمس في خطبة قس بن ساعدة ظاهرة السّجع، التي كانت محبوبة عند الجاهليين لأنها تقرب الشعر وتضفي نغما ورنّة موسيقية تستلذّها النفوس.

3ـ الأساليب:

تتميّز فقراتها بالقصر فهي لا تعدو أن تكون شعرا، فقد وردت في سياق متكرّر لأجل الحفاظ على الإيقاع والتوازن وتأكيد المعنى وترسيخ الفكرة. «فنفس الجاهلي تنمّ عن بساطة فكره تأمّله.»[3]

وهذا يخلق لدى المستمع أثر الإنفعال، فإنها تدوي في النفس نظرا لجملها القصيرة المحكمة المتوازنة، جاءت وفقا للمنهج الشعري المعتاد عند الجاهليين.

---

[1]– ينظر: إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، ص18.

[2]– محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها، ص 103.

[3]– حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج1، ط2 (دار الجيل، بيروت، لبنان) 1991، ص86.

ج- قواعد التخاطب المتجسدة في الخطبة:

1ـ مبدأ التعاون:

نلاحظ في هذه الخطبة أن قس بن ساعدة قد احترم (قاعدة الكم) حيث أنه قد اتّجه مباشرة إلى موضوعه في جمل متوازية الأداء، رغم أن العديد من الخطباء الجاهليين لا يباشرون في المعنى مباشرة ولا يصرّحون به تصريحا وإنّما يلمّحون ويضمّنون. إذ أنّه استهلّ خطبته داعيا الناس إلى التأمّل والتفكّر قبل الموت الذي يذهب بهم دون عودة.

فمعلومات قس بن ساعدة حول الموت كانت مفيدة وكافية تعتمد على الصدق وهذا ما تنص عليه (قاعدة الكيف)، «كن واضحا تجنب الإبهام واللّبس.»[1]

كما نجد (قاعدة العلاقة والإفادة) واضحة في خطبته حيث لم يخرج عن إطار ما يتطلّبه موضوعه «إذ كانت معاني الخطبة قصيرة الأفاق محدّدة المعالم، ذلك لأنه استقى معاني الخطبة من واقع الحياة.»[2]

كما اعتمد فيها على مواجهة الحياة الزائلة مستطلعا الحكم من المشاهدة الطبيعية.

[1]- جاك موشلر- آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، السحب2 (دار سيناترا، تونس) 2010، ص 215.

[2]- محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ج1،ط1 (دار المعارف القاهرة، مصر) 2004، ص 178.

2ــ مبدأ التأدّب:

في هذه الخطبة يظهر لنا أن قس بن ساعدة قد احترم (قاعدة التعفّف) إذ أنه لم يفرض نفسه على المخاطب، فقد استخدم صيغة الأمر، وأعطى لنفسه سلطة في قوله: (اسمعوا واعوا، انظروا واذكروا). وهي عبارات جاءت في تحفظ وليست في صيغة إكراه للمستمعين.

أما (قاعدة التودّد) فنجدها قد تجسّدت في خطبة قس بن ساعدة، حيث أظهر الودّ للمستمعين بخطابه علامة على تأدّبه معهم، فقد كان يحثّ الناس على الاعتبار والتجهّز للموت وما بعده، إذ أنّه ساوى مرتبته بمرتبتهم، حيث قال: (أيقنت أنّي لا محالة حيث صار القوم صائرُ).

3ــ مبدأ التواجه:

تجسد في هذه الخطبة المفهوم الثاني للتواجه وهو (التهديد) الذي يهدّد المرسل إليه من حيث توفّر الأفعال التي تتطلب منه إنجاز بعض الأفعال في المستقبل مثل الأمر في قوله: (اسمعوا، انظروا، اذكروا) والتذكير في قوله: (يا معشر إياد أين الآباء والأجداد وأين المريض والعوّاد) والتحذير والتهديد في قوله: (مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون)، (لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر).

والنصائح في قوله: (ألا إنّ أبلغ العضات السّير في الفلوات والنّظر إلى محلّ الأموات، إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا).

نلاحظ أنه قد صرّح بالقول المهدّد من غير تعديل يخفّف من جانبه التهديدي، إذ أنه حثّهم على السّير في الفلوات والنظر إلى القبور ليعتبروا بها ويتذكّروا ما سوف يؤولون إليه.

4ـ مبدأ التأدّب الأقصى:

هذا المبدأ يقوم على قاعدة أساسية وهي (قاعدة اللّباقة) التي نجدها حاضرة في هذه الخطبة التي تدعو إلى التّساوي بين الذات والغير وهذا ما نجده عند قس بن ساعدة الذي تحدث عن مآل كلّ إنسان على وجه الأرض ألا وهو الموت فهو في خطابه هذا لا يضع فارقا بينه وبين مستمعيه.

5ـ مبدأ التصديق واعتبار الصّدق والإخلاص:

تجسّد هذا المبدأ في خطبة قس بن ساعدة فكلامه كان لداعٍ يدعو إليه في اجتلاب نفع أو دفع أو ضرر، كما تقتضي هذه القاعدة، حيث أنه دعاهم إلى الإيمان وذّكرهم بموت السابقين من الآباء والأجداد ومآل الذين بنوا وزخرفوا القصور ونعموا بالأثاث الفاخر لكي يعتبروا. وهذا ما تقوم عليه (قواعد التواصل).

أما (قواعد التعامل): فنجد (قاعدة الصدق) قد تجسّدت في الخطبة، فقس بن ساعدة كان صادقا فيما نقله إلى غيره حيث تجنب الإخبار بأشياء كاذبة، ويظهر ذلك في في كلامه عن الموت حيث كان له دليل صادق على هذا ويتمثّل في قوله:

(في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لمّا رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر).

فهو هنا يؤكّد على أنّ الموت أمر حتمي وآت لا محالة وقد حفظ لسانه عن إشعار المستمعين بوجود تفاوت بينه و بينهم.

كما نجد (قاعدة الإخلاص) أيضا في هذه الخطبة بحيث قدّم قس حقوق المستمعين على حقه حين أحبّ لغيره ما يحبّ لنفسه، فوجّه لهم النصائح وحثّهم على العمل الصالح.

المبحث الثالث: دراسة لخطبة حجة الوداع:

أ ــ نموذج الخطبة:

وفيها يقول الرّسول صلى الله عليه وسلم:«الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد:

أيّها النّاس اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد! فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإنّ ربا الجاهلية موضوع، وإن أوّل ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارب بن عبد المطّلب،وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد، فهو من أهل الجاهلية.

أيّها النّاس: إن الشّيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، أيّها النّاس: إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما، ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرم الله، وإنّ الزّمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، وإنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، ذو الحجة، والمحرّم، و رجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

أيّها النّاس: إن لنساءكم عليكم حقّا، ولكم عليهنّ حق، لكم عليهن ألاّ يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتينا بفاحشة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنّما النّساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئا، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيرا، ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

أيّها النّاس: إنّما المؤمنون إخوة، ولا يحلّ لامرئ مال إلّا عن طيب نفس منه، ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد! فلا ترجعن بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلّوا بعده، كتاب الله، ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

أيّها النّاس: إنّ ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلاّ بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللّهم اشهد!

قالوا: نعم. قال: فليبلّغ الشاهد الغائب.

أيّها النّاس: إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصيّة، ولا يجوز وصيّة في أكثر من الثّلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من أدعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله.» [1]

[1]– عبد العاطي محمد شلبي، الخطابة الإسلامية، أصولها، تعريفها، عناصرها، مع نماذج من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 41 ـ 44.

ب ـ خصائصها:

كان لظهور الإسلام أثر في جميع جوانب الخطابة، فلم يقتصر تطوّر الخطابة على أنواعها وأغراضها، وإنّما شمل ألفاظها ومعانيها وأساليبها، وطرق إقناع السّامعين والبرهنة وغير ذلك من الأمور.

يعدّ الرّسول صلى الله عليه وسلم أشهر الخطباء ومعلّمهم لهذا ارتأينا أن ندرس خطبة حجّة الوداع التي تتّسم بعدة خصائص، منها:

1ـ تطوّر الألفاظ والمعاني والأساليب:

امتازت لغة خطبة حجّة الوداع بالتّنسيق وبحسن البدء والختام، حيث كان هدف الرّسول صلى الله عليه وسلم، استمالة النّفوس وإثارة العواطف وكانت لغتة معبّرة وأسلوبه قويّ وواضح بعيد عن كل تكلّف أو غموض.

كما أن ألفاظها سهلة وعذبة مألوفة، ابتعد فيها الرّسول عن كلّ ماهو غريب ونافر وأخذ من ألفاظ القرآن الكريم «فموضوع هذه الخطبة ديني روحي وثمرة هذه الخطبة سعادة الفرد والمجتمع، وتمجيد الله وطاعته وابتغاء الخير.»[1]

فهي تعتمد على تحبيب الخير والتنفير من الشر والتوجيه إلى تقوى الله وحبّه.

ومنه فإنه كلّما اكتسب المعنى الشريف ما يليق به من الألفاظ كان أكبر وقعا على النّفوس.

[1]– ينظر: أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، د ط (نهضة مصر، القاهرة) 2003، ص99.

«فالألفاظ الجزلة تتخيّل في السمع كالأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرّقيقة تتخيّل كأشخاص ذو دماثة ولين الأخلاق ولطافة مزاج.»[1]

حيث توسّع الرّسول صلى الله عليه وسلم في المعاني باتّساع مجال الحياة آنذاك وأحسن نظامها وعرضها وترتيبها.

اعتمد في شرح المعاني على «الأساليب البيانية في الاستعارة والكناية والتشبيه قريبة تؤدي غرضها بجمال ووضوح.»[2] وكان التأثير بالأسلوب القرآني بارزا في خطب الرّسول صلى الله عليه وسلم في معانيه وطرق ترتيب آياته وانسجامها واتّبع طريقته في البيان حيث اقتبس منه واستشهد به في خطبته، وتجنّب الأساليب الوحشية التي شاعت في الحاهلية.

2ـ الإطناب:

اتّسم أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم بالإطناب وذلك لشرح مبادئ الإسلام وشرائعه ولتبليغ كتاب الله ودعوة الكافرين إلى اعتناق الإسلام.

وهذا لا يعني أنّه أطال في كل خطبه وفي هذا الصّدد يقول الجاحظ: «ثم اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والحضر على ضربين منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضوع يحسّ معه.»[3] ولم يوجز الرسول صلى الله عليه وسلّم ايجازا مبالغا فيه يؤدي إلى غموض المعنى في أذهانهم.

---

[1]– محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ص 210.

[2]– عاطف فضل محمد، التحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ط2 (دار المسيرة، عمان، العبدلي) 2014 ص357.

[3]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص07.

3ـ الوضوح:

اعتمد الرّسول صلى الله عليه وسلم على الوضوح متأثّرا بالقرآن الكريم، فبمجيء الإسلام زالت الألفاظ الغريبة والمستهجنة بعض الشيء وانصرف الخطباء إلى استعمال المألوف والواضح الذي بدونه لا يتحقّق الفهم الذي أساسه الإقناع. وهذا لا يعني أن يكون اللّفظ عاميا أو سوقيا غريبا، بل سهلا واضح المعنى.

وقد تجنّب الرّسول صلى الله عليه وسلم التكلّف في اختيار الكلام، وبما أن المستمعين طبقات منهم الجاهل والعالم، سعى الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون ألفاظه واضحة في أذهانهم خاصة أن الأمر يتعلق بنشر التعاليم الإسلامية فتميّزت خطبته أيضا بـ «خلوّ الألفاظ من الأغراب والتعقيد والاستكراه....»[1]

وبمجيء الإسلام أيضا قلّ استعمال السجع، وقد اعتمد الخطباء في تحسين خطبهم على التّجويد والتخيير لأنّ السّجع إذا جاء متكلّفا كان مستكرها وأنّ الإسلام دعا إلى التّهذيب ونهى عن التكلّف لهذا كره الرّسول كل متكلّف واعتمد البساطة والوضوح في كلامه.

[1]– عاطف فضل محمد، التحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ص 357.

ج ــ قواعد التخاطب المتجسّدة في الخطبة:

لعلّ الخطبة في بعض وجوهها ترسم فضاءً لتحقق بعض القواعد ولربّما تحتفي خطب الرّسول صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرها من النصوص، ولنبدأ من:

1ــ مبدأ التعاون:

نلاحظ هنا أنّ(قاعدة الكم) لها حضور خاص في هذه الخطبة، حيث تخلّى الرّسول صلى الله عليه وسلم فيها عن العبارات الجاهلية الفضفاضة، وعمد إلى التعبير المباشر حيث تبدأ الخطبة بحمد الله والاستغفار، ومطلعها أسلوب استفهام (ألا هل بلغت؟) «الذي من شأنه أن يستثير أذهان الجمهور ويشركهم في الأمر الذي من أجله أنشأت الخطبة.»[1]

أما بالنّسبة (لقاعدة الكيف) فقد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم الصّدق في خطابه حيث «كان تأثّره واضحا بآيات القرآن الكريم، وكانت ألفاظها دالّة على المعاني مع إيجاز لا إخلال فيه.»[2]

كما تجسّدت في هذه الخطبة (قاعدة العلاقة أو الإفادة)، حيث أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبيّن للمسلمين أمورًا كثيرة تتعلّق بدينهم الجديد فكلامه عبارة عن نصائح مفيدة تشمل طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف.

وأمّا (قاعدة الجهة) فكانت حاضرة في الخطبة بقوّة حيث أنّ ألفاظ الخطبة خاليّة من الأغراب والاستكراه والنافر الذي تأباه الأسماع، وجملها مرتّبة ترتيبا واضحا لا تعقيد فيه، حيث أخضع العبارة الخطابيّة لضرورة الإفصاح والتوضيح العاديين المباشرين.

---

[1]– عاطف فضل محمد، التحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ص 357.

[2]– المرجع نفسه، ص 357.

2ــ مبدأ التأدب:

كانت (قاعدة التعفّف) حاضرة أيضا في هذه الخطبة حيث أن الرّسول صلى الله عليه وسلم لم يفرض نفسه على المستمعين بل وجّه خطابه بطريقة ليّنة وأسلوب سلس حيث: «أنّه لم يكن ينطق إلا باللّفظ المختار البريء من كل ما يستكره اللّفظ الذي يحبّب النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه.»[1]

حيث استعان بلغة معبّرة وأسلوب واضح بعيد عن كل تكلّف.

أما (قاعدة التخيير أو التشكيك) فلم تتجسّد في خطبته صلى الله عليه وسلم، إذ أنّه لم يترك لمستمعيه مجالا للتخيير أو التشكيك، بل أمرهم باتباع تعاليم الدين، كما اعتمد على أساليب الإلحاح والتّكرار للتّأكييد على المستمعين وإلزامهم وليس لتخييرهم.

(قاعدة التودّد) كان الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته متأدّبا مع قومه إذ أنّه ساوى بين مرتبته ومرتبتهم، ولم يجعل فارقا في إلقائه للأحكام، فتعاليم الدّين تشملهم جميعا حيث قال في خطبته: (إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أبدأ به هو ربا عمّي العباس بن عبد المطلب) وفي قوله أيضا: (أيها الناس إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب (...) ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم). وهذا دليل على عدله صلى الله عليه وسلم وتواضعه.

3ــ مبدأ التواجه:

بالنسبة لهذا المبدأ فقد تجسّد مفهومه الثاني في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا المفهوم هو "التهديد" الذي يهدّد المرسل إليه من حيث توفّر الأفعال التي تتطلّب منه إنجاز بعض

[1]– عاطف فضل محمد، التحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ص 360.

الأفعال في المستقبل مثل: (أوامر) الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «أيّها الناس اسمعوا منّي...»، «فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيرا ...».

كما اجتهد الرسول صلى الله عليه وسلم في (نصحهم) مع تبيان سبيل الخير والفضيلة ويتمثّل ذلك في قوله: «أيّها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم.»، «أيّها النّاس إنّما المؤمنون إخوة ولا يحلّ لامرئ مال أخيه، إلاّ عن طيب نفس منه.»

فهو يوحي إلى المؤمنين بأنّ الانتصار الحقيقي هو الانتصار على النّفس في كبت جماحها وميلها إلى الرّذيلة.

أمّا عن (التهديد والتحذير) فقد حذّر عليه الصلاة والسلام المستمعين من الشّيطان وغوايته محرّما التلاعب بالأشهر الحرم، كما حذّرهم من الرّدة في قوله: «فلا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم أعناق بعض.»

4ـ مبدأ التأدب الأقصى:

يقوم هذا المبدأ على قاعدة أساسية هي قاعدة اللّباقة التي نجدها قد تجسّدت في خطبة حجة الوداع، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى تقوية روابط الأخوّة، بين المسلمين والقضاء على الحروب الداخلية التي كانت بينهم. «فيقرّر أن المؤمنين إخوة لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحابّ فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ولا حرب ولا سفك للدماء.»[1] كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود الوئام بين أفرادها، كما أنه صلى الله عليه وسلم

[1]– عاطف محمد فضل، التحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ص 359.

قد رفع من شأن المرأة فجعل لها حقوقا و عليها واجبات، ودعا إلى التّعاطف بينها وبين زوجها وهذا دليل على لباقته صلى الله عليه وسلم.

5ــ مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص:

- **قواعد التواصل:**

لقد ألقى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخطبة «بعد أن شعر بدنوّ أجله، وألمّ به مرض وأراد أن يبيّن للمسلمين كثيرا من الأمور التي تتعلّق بدينهم الجديد.»[1] وحثهم على التّوحيد والابتعاد عن الشرك فالرسول صلى الله عليه وسلم بيّن لهم الحلال ودفع عنهم الضرر والهلاك.

- **قواعد التعامل:**

كان الرسول صلى الله عليه وسلم صادقا في قوله وعمله، وللجاحظ في كتابه البيان والتبيين وصفا لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقوة بلاغته، حيث قال: «فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ولم يتكلم بكلام إلاّ قد حقّ بالعصمة وشيّد بالتأييد، ويسّر بالتوفيق وهو الكلام الذي ألقى الله عليه بالمحبة ....»[2]

فنجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد استمدّ معاني خطبته من تعاليم الدين الإسلامي وهذا دليل على صدقه، كما نلمس في خطبته مدى حبّه لقومه وإيثاره بحيث يحبّ لهم ما يحب لنفسه وكل هذا معروف عنه صلى الله عليه وسلم، و لا جدال حول أخلاقه النبيلة والفاضلة.

[1]– ينظر :إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، ص 55.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص17.

الملاحظ أن هناك إختلاف واضح بين الخطبيتين، بحيث أن خطبة قس بن ساعدة هي خطبة قصيرة لا تحوي مقدمة، كما أنّها خالية من التضمينات والاقتباسات، ولم يكن لقس فيها النفس الطويل، فقد جاءت متقطعة الأنفاس وخاتمتها عبارة عن جمل قصيرة مسجوعة أحدثت نغما موسيقيا من أجل إثارة انتباه المستمعين. على عكس ما جاء في خطبة حجة الوداع الذي افتتحها الرسول صلى الله عليه وسلم بحمد الله والثناء عليه والاستغفار، وكانت طويلة نوعا ما لأنها كانت آخر خطب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، فقد أخذ يستحثّ المسلمين على تقوى الله ولم يتخلّ فيها عن السّجع تخلّيا تامّا لكنه أضعف من شأنه ولم يدعه عمادا للتأثير كالجاهلي، وقد أدّت خطبته صلى الله عليه وسلم مضمونا إنسانيا وروحيا عميقا، وأفكارها مستوحاة من تعاليم الدين الحنيف لإعلاء كلمة التوحيد والقضاء على الشرك، وختمها الرسول صلى الله عليه وسلم بإلقاء السلام والرحمة على المستمعين.

خاتمـــة

تعدّ قواعد التّخاطب من أهمّ آليات التّداولية، وتتميّز بتشعّبات كثيرة يصعب تناولها والإحاطة بها بكيفيّة وافية وشافية، لذا لا ندّعي أنّنا ألممنا بجميع جوانب الموضوع ولا أعطيناه حقّه ولا وفّيناه جميع مطالبه.

فما بحثنا هذا إلّا محاولة لإعطاء ولو فكرة عن التّخاطب وقواعده، والجدير بالذّكر في هذا المقام هو تعدّد مقاصد المخاطِب التي ينبغي أن يفهمها المخاطَب.

- خلصنا إلى أنّ هذه القواعد قد تجسّدت في خطبة الرّسول صلى الله عليه وسلّم (حجّة الوداع)، وكذا الخطبة الجاهلية (خطبة قس بن ساعدة الإيادي).
- واختلفت خصائص كل خطبة فالنهضة الإسلامية أدت إلى تطوّر الخطابة في موضوعاتها وطابعها العام، فالخطيب الإسلامي زاد بالإسلام علما و ثقافة وارتفع بصفاته إلى كلّ ما يكمّل الخطيب روحاً و جسدًا.
- وخلصنا أيضا إلى أن الخطابة ليست بالفنّ المتيسّر إلّا لمن يملك زمام اللّغة واجتمعت في لسانه الفصاحة والبيان والجرأة عند المقابلة، مع ضرورة الإلمام بأمور عديدة كالثقافة الواسعة ممّا يفيده في إيصال رسالته.
- كما استنتجنا أنّ المتخاطبين عندما يتبادلون الكلام لا يكون ذلك من أجل العبث، وإنّما من أجل تحصيل فائدة إذ ينبغي للمخاطِب أن يفيد بكلامه، وينبغي على المخاطَب أن يكون قادرا على اجتناء هذه الفائدة، كما يجب على المخاطِب أيضا أن يقدّم المعلومات الأكثر قوّة والتي تهمّ المخاطَب في الموضوع الذي يتكلم عنه، وكل هذا تجسّد في الخطبتين (خطبة قس بن ساعدة الإيادي، وخطبة حجّة الوداع للرّسول صلى الله عليه وسلّم).

وفي الأخير نرجو أن نكون قد وفّقنا في محاولتنا هذه من الإلمام بعناصر البحث وحسن تنظيمها خاصّة في الجانب التطبيقي.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1- أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب مج 5، ط4 (دار صادر، بيروت) 2005.

2- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ج2، ج3، ط07 (مطبعة المدني، القاهرة) 1998.

3- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج1، ط1 (مطبعة مصطفى الثاني الحلبي،مصر) 1923.

4- أحمد محمّد الحوفي، فنّ الخطابة، د ط (نهضة مصر، القاهرة) 2001.

5- إليا حاوي، فنّ الخطابة وتطوره عند العرب، ط د (دار الثقافة بيروت، لبنان) د ت.

6- بهاء الدّين محمد مزيد، تبسيط التداولية، ط 01 (شمس للنشر والتوزيع، المقطم، القاهرة) 2010.

7- جاك موشلر- آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، سحب 2 (دار سيناترا، تونس) 2010.

8- حنّا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج1، ط2 (دار الجيل، بيروت، لبنان) 1991.

9- صلاح الدّين صالح حسين، في لسانيات العربية، د ط (دار الفكر، مصر، القاهرة) 2015.

10- طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1 (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب) 1998.

11-عاطف فضل محمد، التّحرير الكتابي الوظيفي والإبداعي، ط2 (دار المسيرة، عمان، العبدلي) 2014.

12- عبد العاطي محمّد شلبي، الخطابة الإسلامية، أصولها، تعريفها، عناصرها مع نماذج من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم، د ط (المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة، الإسكندرية) 2006.

13- عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1 (دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان) 2004.

14- عبد علي جابر المري، الخطابة عند الفاروق، دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير (مقدّمة لكلية الآداب والعلوم في اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط) 2011-2012.

15- فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تعريب: صابر الحباشة، ط1 (عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن) 2012.

16- محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها وتاريخها، ط2 (دار الفكر، القاهرة، مصر) 1980.

17- محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ج1، ط01 (دار المعارف، مصر، القاهرة) 2004.

18- محمود بن عمر جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، ط1 (المكتبة العصرية، صيدا بيروت) 2003.

19- منصف دقّاشي، علم التخاطب في مناظرات ابن تيميّة، مذكرة ماجستير(جامعة مولود معمري، تيزي وزّو)2014.

فهرس

فهرس

كلمة شكر.....

إهداء.....

مقدمة.....أ- ب

الفصل الأول: الدراسة النظرية

المبحث الأول: مفهوم التخاطب

أ. لغة.....6

ب.اصطلاحا.....6- 7

المبحث الثاني: قواعد التخاطب

أ. مبدأ التعاون.....8-11

ب. مبدأ التأدُّب.....12-14

ج. مبدأ التواجه.....14-18

د. مبدأ التأدُّب الأقصى.....19-22

هـ. مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص.....23-27

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية.

المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي والإسلامي.

أ. الخطابة في العصر الجاهلي.....30-32

ب. الخطابة في صدر الإسلام.....33-34

المبحث الثاني: دراسة لخطبة قس بن ساعدة الإيادي

أ. نموذج الخطبة.....35

ب.خصائصها.....36-37

ج. قواعد التخاطب المتجسِّدة فيها.....38-40

المبحث الثالث: دراسة لخطبة حجّة الوداع

أ. نموذج الخطبة.....41-42

ب.خصائصها.....43-45

ج. قواعد التخاطب المتجسِّدة فيها.....46-50

خاتمة.....52-53

قائمة المصادر والمراجع.....55-56

فهرس.....58-59